

## دراسات ما بعد الكولونيالية في السياق الفرنسي: المصادر، الموضوعات والمناقشات النقدية

### Post-colonial Studies in the French Context: Sources, Themes and Critical Discussions

د. إدريس الخضراوي\*

جامعة القاضي عياض – مراكش / المغرب

driss\_elkhadraoui@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2021 / 06 / 19 تاريخ القبول: 2021 / 06 / 29 تاريخ النشر: 2021 / 08 / 31

#### Abstract:

This paper approaches the field of postcolonial studies in the French context. Obviously, the emergence of this scientific project, which "includes every culture affected by the imperialist process from the colonial moment to the present day", is linked to the seventies of the twentieth century, as supported by the history of contemporary intellectual and critical theories. This period was marked, on one hand, by the decline of Marxism, whose concepts and theoretical frameworks no longer represented the main tool for liberation. On the other hand, a decline that worsened even more with the fall of the Berlin Wall in 1989. Besides, doubt and suspicion stood against the possibility of continuing the progress of the major industrial societies; exposed to severe economic crises since the Oil embargo in 1974, and a threat to developing countries due to the increasing failure of their ruling elites to get rid of capitalist economic domination and their liberal ideology.

**Keywords:** Post-colonialism, ideology, culture, supremacy.

#### ملخص البحث:

تهدف هذه الورقة إلى الاقتراب من ميدان دراسات ما بعد الكولونيالية في السياق الفرنسي. ومن المعروف أن ظهور هذا المشروع العلمي الذي "يشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا هذا"، يرتبط بسبعينيات القرن العشرين كما يتبين من تاريخ النظريات الفكرية والنقدية المعاصرة. ولقد تميزت هذه الفترة ليس فقط بتراجع الماركسية التي لم تعد مفاهيمها وأطرها النظرية تمثل الأداة الأساسية للتحرر، ذلك التراجع الذي تعمق أكثر بسقوط جدار برلين سنة 1989، وإنما ميزها أيضا الشك والريبة في إمكانية استمرار تقدم المجتمعات الصناعية الكبرى بعد أن تعرضت لأزمات اقتصادية خانقة منذ حظر النفط سنة 1974، وفي مستقبل الدول التي توصف بأنها في طريق النمو بفعل الإخفاق المتزايد لنخبها الحاكمة في التخلص من الهيمنة الاقتصادية الرأسمالية وإيديولوجيتها الليبرالية.

**الكلمات المفتاحية:** ما بعد الكولونيالية، الإيديولوجيا، الثقافة، الهيمنة.

## على سبيل التمهيد:

يرتبط ظهور دراسات ما بعد الكولونيالية، ذلك المشروع العلمي الذي "يشمل كل ثقافة تأثرت بالعملية الإمبريالية منذ اللحظة الكولونيالية حتى يومنا هذا"<sup>1</sup>، بسبعينيات القرن العشرين كما يتبين من تاريخ النظريات الفكرية والنقدية المعاصرة. ومن المعروف أن هذه الفترة تميزت بتراجع الماركسية التي لم تعد مفاهيمها وأطرها النظرية تمثل الأداة الأساسية للتحرر، وبالتالي لفهم ورؤية العالم الذي نعيش فيه، ذلك التراجع الذي تعمق أكثر بسقوط جدار برلين سنة 1989 الذي كان من بين نتائجه الحاسمة نهاية المواجهات المختلفة التي كانت تقيم التعارض بين رؤيتين للعالم أو معسكرين<sup>2</sup>، كما ميزها أيضا الشك والريبة ليس فقط في إمكانية استمرار تقدّم المجتمعات الصناعية الكبرى بعد أن تعرّضت لأزمات اقتصادية خانقة منذ حظر النفط سنة 1974، بل أيضا في مستقبل الدول التي توصف بأنها في طريق النمو بفعل الإخفاق المتزايد لنخبها الحاكمة في التخلص من الهيمنة الاقتصادية الرأسمالية وإيديولوجيتها الليبرالية.

لكنّ تشكل هذا المشروع العلمي لا يجد سنده في العوامل السابقة فحسب، بل يجدها أيضا في الجهد الفكري والنظري الذي نهض به مجموعة من المثقفين العالميين الذين آمنوا بأنّ إحدى المهام الرئيسية والحاسمة التي ينبغي أن ينهضوا بتأديتها تتمثل في الإسهام في "إضعاف العنف الكامن في التصنيفات الماورائية، وليست سياسات "الحقيقة" سوى واحدة من تلك التصنيفات"<sup>3</sup>. لقد استفاد هؤلاء المثقفون من رافدين مهمين، يرتبط أولهما بتكون سياق ثقافي مناهض للاستعمار منذ الخمسينيات حيث ظهرت أصوات مؤثرة عملت على

تفكيك الاستعمار وآثاره المختلفة، من طراز فرانس فانون وألبير ميمي وجان بول سارتر، أما الثاني فيحيل على النظرية الفرنسية french theory، وهذه التسمية تُطلق على مجموعة من مفكري ما بعد الحداثة الفرنسيين الذين مهدت تصوراتهم الفكرية لتحول جذري في الحياة الثقافية الأمريكية<sup>4</sup>. ورغم أنّ فكر هذه المجموعة لم يتناول مسائل من قبيل الاستعمار، وما بعد الكولونيالية والمقاومة، فإنهم ألهموا النقاد الأمريكيين إلى مجموعة من الاتجاهات النقدية الجديدة التي تنطوي على مقاربات مختلفة، مثل دراسات ما بعد الكولونيالية، بالإضافة إلى تيارات أخرى باتت أساسية في الجامعة الأمريكية كالدراسات الثقافية، والدراسات الجندرية، ودراسات العولمة، ودراسات الشتات ودراسات المناطق.

انصبّت جهود الباحثين في هذا الحقل على نقد مظاهر وأشكال التمرکز في الفكر الغربي المعاصر، بما في ذلك الأعمال والنصوص والتمثيلات التي أنتجها هذا الفكر حول المناطق والثقافات غير الغربية. ويعدّ إدوارد سعيد من أبرز المثقفين الذين أسهموا بقوة في تأسيس هذا التيار، منذ مؤلفه "الاستشراق" الذي ظهر في الولايات المتحدة الأمريكية سنة 1978 وتناول فيه بالدرس التمثيلات والأنساق الثقافية التي تستبطنها الكتابات الغربية حول الشرق، بما في ذلك الأعمال التي تندرج ضمن الاستشراق بوصفه حقلا أكاديميا. وبحسب إدوارد سعيد "ليست الإمبريالية وليس الاستعمار مجرد فعل بسيط من أفعال التراكم والاكْتساب. فكل منهما مدعم ومعزز، بل وربما كان أيضا مفروضا من قبل تشكيلات عقائدية مهيبة تشمل مفاهيم فحواها أن بعض البقاع والشعوب تتطلّب وتتضرّع أن تخضع للسيطرة"<sup>5</sup>. وعليه، فقد أدّى تأسيس هذا الميدان

فرنسا إلا في وقت متأخر، ولماذا لم يكن هناك أي تطور خاص بها؟<sup>9</sup>.

ومن منظور آخر، يؤكد بعض المشتغلين بهذا الحقل أن فرنسا شهدت في السنوات الأخيرة وخاصة في ميدان العلوم الاجتماعية، نقاشات واسعة حول دراسات ما بعد الكولونيالية أطلقها مؤرخون وأنثروبولوجيون<sup>10</sup>. وبحسب نيكولا بانسيل، فإن الاهتمام بهذا الميدان الفكري في الحقل الثقافي الفرنسي يعود لسببين: أولهما الماضي الاستعماري لفرنسا والهجرات ما بعد الكولونيالية، أو علاقة المجتمع والجمهورية الفرنسية بالإسلام التي تتردد بصورة مباشرة إلى القضايا التي تهتم نظرية ما بعد الكولونيالية ببحثها ودراستها، وهذا الموضوع يحظى بنقاش واسع في المجال العمومي، وكذلك داخل الجامعات الفرنسية. يُعزّز هذا الرأي ما ذهب إليه الباحثان جيم كون وماريا بينيديتا باستوم من أن المجتمع الفرنسي منذ 2005 أصبح أكثر قربا من قضية مزعجة كثيرا ما انقسم الرأي العام بصدها ألا وهي الماضي الاستعماري لفرنسا، وعلاقته بالتمزق الذي يطاول الروابط الاجتماعية المعاصرة<sup>11</sup>. أما الثاني فيرجع إلى كون نظرية ما بعد الكولونيالية اضطلعت، خلال العقود الثلاثة الأخيرة، بعمل فعال لتجديد جزء من الأبحاث الأكاديمية حول التجارب الاستعمارية وتأثيراتها المستمرة على الأفراد والمجتمعات والدول. لقد بات من المؤكد بالنسبة لكثير من المثقفين الفرنسيين المهتمين بهذا الحقل الفكري، كما يقول فريد بوشي، أنه "للتفكير في العيش المشترك، ثمة قضايا أساسية تفرض نفسها: من هو الآخر؟ أي مكانة نترك في مجتمعاتنا للغيرية أو الاختلاف؟ أي تمثيل نبني للغريب، والمهاجر، والإنسان المسكون بثقافة أخرى غير ثقافتنا؟ كيف نفكر في العلاقة مع الآخر الوافد من مستعمراتنا

النظري إلى إغناء المجال الأكاديمي بظهور قراءات جديدة تعنى "بالعالم كما كان موجودا أثناء الهيمنة الامبراطورية الأوروبية وبعدها، وتأثيرات تلك الفترة في الآداب المعاصرة"<sup>6</sup>، كما تهتم بالحياة اليومية للإنسان، والمجتمعات التي ترزح تحت سطوة الهيمنة، فضلا عن كونها تعتمد، من الناحية المنهجية، المقاربات البينتخصصية interdisciplinarité، والمناهج التفكيكية.

إذًا، بما أن دراسات ما بعد الكولونيالية تطرح أسئلة عميقة على مجموعة من الخطابات الغربية، بما في ذلك السردية التي تركز عليها الحداثة والتي تعطي للحضارة الغربية موقعا مركزيا مقارنة بالحضارات الأخرى، ومن بين الافتراضات التي تنهض عليها هذه السردية فكرة أن أوروبا هي مهد العقل والعلم، وأن القيم التي تحملها كالتقدم والمساواة والحرية الفردية هي قيم كونية، فإن انتقالها إلى بيئات فكرية وثقافية أخرى لم يكن بلا عوائق، وبالتالي لم تسلم مما وصفه إدوارد سعيد بمحاولات إفراغ النظرية من عناصر قوتها، وذلك بتحويلها إلى بديل أكاديمي داجن يحل محل الشيء الفعلي الذي كان يرمي إلى التغيير السياسي<sup>7</sup>. وإذا كان اقتبال هذا التيار قد تميز بالاهتمام النقدي في الفضاء الأنجلو أمريكي، وكذلك في إسبانيا واليابان والهند وإفريقيا، فإن انتقاله إلى فرنسا لم يسلم من العثرات والصعوبات، حيث ظلت مجهولة لفترة طويلة، إلى الحد الذي يتبين معه أن التفاعل مع أدواتها النقدية والمنهجية لم يتم إلا في السنوات الأخيرة، وبشكل محتشم. وهذا ما يعبر عنه ليس فقط بالدعوة لرفض النظرية، بل أيضا بوصفها على أنها غير علمية<sup>8</sup>. وربما لهذا السبب كتبت الباحثة الفرنسية سونيا دايان هزبراون: "سيتعين علينا أن نسأل أنفسنا لماذا لم تعرف نظرية ما بعد الكولونيالية في

بانسيل Nicolas Bansil، اعتماداً على كتابه بعنوان "ما بعد الكولونيالية"، الصادر في سلسلة "ماذا أعرف؟" عن المطبوعات الجامعية الفرنسية سنة 2019. ويُعرف بانسيل بأنه باحث متخصص في الاستعمار وما بعد الكولونيالية الفرنسيين. وقد ناقش سنة 1989 أطروحة الدكتوراه في موضوع: بين الثقافة والثورة: الحركات الشبابية والرياضة في التطور السياسي والمؤسسي لإفريقيا الغربية-الفرنسية (1945-1960). ويشتغل حالياً أستاذاً بجامعة لوزان، حيث يدرس ويُشرف على مجموعة من طلاب الدكتوراه في مجالات التاريخ والرياضة والحركات الشبابية، كما يدير مجموعة البحث لمعهد علوم الرياضة بلوزان، ومجموعة البحث في تاريخ إفريقيا المعاصر. وقد أصدر بانسيل ما يزيد عن ستة وعشرين كتاباً تعدّ مراجع أساسية، منها: صور ومستعمرات (1993)، الآخر ونحن (1995) من المحارب إلى الرياضي (2002)، ثقافة ما بعد الكولونيالية (2008)، فرنسا السوداء (2011)، العرق المتخيل (2014)، نحو صراع الهويات (2016).

#### 1- في مصادر دراسات ما بعد الكولونيالية

تجمع الدراسات والأبحاث المهمة بتاريخ ميدان ما بعد الكولونيالية على أنّ جذوره ترتبط بمرجعيتين أساسيتين: يتمثل أولهما في الفورة التي شهدها الفكر المناهض للاستعمار منذ الخمسينات من القرن الماضي، بينما يُحيل الثاني على النظرية الفرنسية. أما نشأة ما بعد الكولونيالية، فتقترب بظهور دراسات التابع من جهة Subaltern Studies، وكتاب "الاستشراق" Orientalism لإدوارد سعيد من جهة ثانية.

#### 2.1 الفكر المناهض للاستعمار

يشمل الفكر المناهض للاستعمار تراث مجموعة من المفكرين الذين انخرطوا منذ 1950 في نقد

القديمة والذي- بنظرة عرقية- قد نسيجه في غالب الأحيان في صورة كاريكاتورية تجعل التلاقي معه أمراً مستحيلاً<sup>12</sup>.

إذا كانت الأبحاث ما بعد الكولونيالية حول الماضي الاستعماري لفرنسا تُعرفُ تطوراً مهماً في الدول الناطقة بالإنجليزية منه في فرنسا كما يدلّ على ذلك الكتاب العمدة "دراسات ما بعد الاستعمار الفرنكفونية" *Francophone Postcolonial Studies*، الذي صدر في إنجلترا سنة 2003، فإن هناك من الباحثين الفرنسيين من يتحدث اليوم عن مكتبة ما بعد الكولونيالية<sup>13</sup>، بحكم ظهور مجموعة مهمة من الأعمال التي لا يشغل أصحابها هاجس التعريف بهذه النظرية وحسب، وإنما أيضاً استثمار أدواتها في دراسة وتحليل ما بات يُعرفُ في النظرية الأدبية بـ آداب ما بعد الكولونيالية، وتعدّ جهود الباحثين جون مارك مورا وإف كلافرون رائدة في هذا المجال<sup>14</sup>. وعليه، أصبح من المؤكد أن دراسات ما بعد الكولونيالية التي تضافرت مجموعة من العوامل العلمية (المنهجية) والسياسية في التقليل من أهميتها<sup>15</sup>، وبالتالي عدم منحها الاعتراف الكامل، قد فتحت في الفترة المعاصرة مساحة لم تكن ممكنة من قبل للتفكير من مسافة أبعد في علاقات الهيمنة في الوضع الاستعماري، حيث أصبحت التمثيلات الاستعمارية موضوع دراسات مبتكرة في العلوم الإنسانية، وفي العلوم الاجتماعية في الآونة الأخيرة<sup>16</sup>. ولما كان حقل ما بعد الكولونيالية بهذه الأهمية العلمية، فإننا سنعمل في هذه الدراسة على البحث في مصادره ومرجعياته الأساسية، والموضوعات والمجالات التي يعنى الباحثون بدرسها، كما سنبرز النقاشات والانتقادات التي ما فتئ يثيرها. على أننا سنركز على منظور باحث يعدّ من أبرز المفكرين المشتغلين بهذا الحقل، وهو المؤرخ نيكولا

الاستعمار وتعرية أنساق التمرکز التي تتخلّل خطاباته. يتعلّق الأمر إذاً بكل من فرانس فانون، وألبير ميمي، وجان بول سارتر. ولما كانت أعمال هؤلاء المفكرين تنطوي على نقد جذري للاستعمار، وللنصوص التي كانت تصدر باللغة الجديدة من جانب ممثليه، فإنها تقع في صميم عملية تكون تيار ما بعد الكولونيالية الذي يهدف أساساً إلى تأكيد الاختلاف عن المركز الإمبراطوري<sup>17</sup>. ويعدّ فرانس فانون رائد هذا الحقل، إذ أوحى له إحساسه بالضيق من حكم فيشي في المارتينيك وعلاقته بالشاعر الزنجي إيمي سيزار، بالإضافة إلى "انشغاله ببعض مفكرَي الحداثة العظام مثل هيجل وماركس وفرويد وسارتر وميلوبونتي متفحصاً أفكارهم بمجهر الوضع المنزوع الإنسانية الذي أنتجته العنصرية والكولونيالية"<sup>18</sup> وتجربته في الجزائر، بمجموعة من الأعمال الفكرية الأصيلة التي تقدّم توصيفاً نفاذاً للمنطق الاستعماري وأساسه المانوي<sup>19</sup>، وما يتولّد عنه من أشكال القمع الملموس، والاستغلال الاقتصادي، والتمهيش الاجتماعي، ونزع الطابع الشخصي. ويعتبر كتابه بشرة سوداء أقنعة بيض (1952) محصّلة التجربة التي كونها هذا المثقف بالجزائر حيث تعرّف عن قرب على ما يقترفه الاستعمار من عنف، وقهر، ولا مساواة اجتماعية. وقد تابع هذا العمل مضيئاً الدمار النفسي الناجم عن الوضع الاستعماري، كما يدلّ على ذلك كتابه: معذبو الأرض (1961). وعليه، ففي هذا الكتاب الذي يُجمّع دارسو ما بعد الكولونيالية على وصفه بالعمدة، يقوم فانون ليس فقط بتحليل ذاتية المستعمر، ولكن أيضاً الذاتية المستعمرة التي تقع في قبضة التحيز والعلاقات المتحيزة مع المستعمرين الذين يثبطون قدرتها على الحرية<sup>20</sup>. وإذا كان يُنظرُ إلى فانون كمؤسس لنظرية ما بعد الكولونيالية،

فلأنه كان يفكر في الاستعمار انطلاقاً من موقعه، أي موقع المستعمر<sup>21</sup>. وعلى هذا الأساس، مثلت استكشافات هذا المثقف الفذ لذاتية المستعمر والمستعمر، وشبكة العلاقات المعقّدة التي هما عالقان فيها، والاضطهاد الاستعماري الذي يعري مزاعم النظرة الإنسانية الأوروبية بشأن "الذات"<sup>22</sup>، أهمّ الجوانب التي سيستعيدها نقاد ما بعد الكولونيالية بعد مرور أزيد من عشرين سنة على ظهور أعماله. ولا غرابة أن يتعيّن النصّ الفانوني بوصفه مرجعاً أساساً بالنسبة لمنظري هذا الميدان النقدي والفكري، إذ سيفتح لهم منافذ إلى مسارات غنية في دراسة الاستعمار وتأثيراته النفسية والاجتماعية والثقافية. وهذا ما شدّد عليه نايجل غبسون عندما أوضح أن فانون في محاولته تجاوز المانوية الكولونيالية كان "جزءاً من جدل ناشئ ما بعد الكولونيالية بشأن الإخضاع والمذهب الذاتي، بشأن الخطاب والقوة، بشأن السلطة والهوية، بشأن التقاليد والحداثة، قبل الحالة النهائية"<sup>23</sup>. في هذا السياق إذاً، يُمكنُ التفكير بجهود الباحث ما بعد الكولونيالي ناسيس ناندي الذي يعدّ من أبرز الدارسين الذين استثمروا عمل فانون للكشف عن ما يترتب من آثار معقّدة على مواجهة الشعوب الأصلانية للثقافة واللغة التي يستخدمها المستعمر، والتي تقوم في الوقت نفسه بقمعهم وإبهارهم<sup>24</sup>.

في نفس السياق إذاً، تكتسبُ مساهمة ألبير ميمي أهمية كثيفة من خلال كتابه "صورة مستعمر وصورة مستعمر" (1957) الذي ظهر في ذروة الحرب على الجزائر، والتعذيب الذي اقترفه الجيش الفرنسي ضدّ الجزائريين. إن الأثر الحاسم لهذا الكتاب لا يأتي فقط من الظرفية التي ظهر فيها حيث يتناولُ ميمي النظام الاستعماري على أنه نظام هيمنة سياسية واقتصادية واجتماعية، ومثل أي نظام

للهيمنة، يَجِبُ أن ينتهي بالضرورة، وإنما أيضا من خلال القضايا التي استطاع الكاتب أن يستكشفها، في وقت كان الاهتمام بها محدودا وضيقا، مثل الاغتراب الذي يعيشه المستعمر بسبب الوضع الاستعماري. يرى ألبير ميمي أن هناك أربعة خيارات أمام المستعمر، هي: القبول واستدخال التفوق الغربي؛ الاستيعاب؛ الهوية والرجوع إلى الأصل؛ الثورة. وهذا الخيار الأخير (=الثورة) هو الذي يدافع عنه ميمي، أي أهمية اتخاذ موقف واضح من الاستعمار، ومواجهته من خلال استراتيجيات تفكير مختلفة يتم فصلها فيها علم الاجتماع وعلم النفس. وكما هو الحال بالنسبة لفانون، يهتم ميمي بالعواقب النفسية للاستعمار، ويفتح بابا إلى مسار جديد يتمثل في ضرورة التفكير في التمثيلات المختلفة التي تعمل على ترسيخ نظام يتسم بالتراتبية دون أن يتم التشكيك فيه من قبل الفاعلين. وهذا البعد الجديد الذي ألمع إليه هذا المفكر التونسي، هو الذي ستصطلح دراسات ما بعد الكولونيالية بتعميقه وتوسيع التفكير فيه.

ضمن هذا الأفق المناهض للاستعمار، تكتسي مساهمة فيلسوف الوجودية جان بول سارتر قيمة خاصة، لأن هذا المثقف لم يكن يوجد "من فلاسفة القرن من له مثل أثره المباشر على عقول واتجاهات ذلك الحشد من البشر، خاصة الشباب، في جميع أنحاء العالم"<sup>25</sup>، وهذا ما يفسر الدور المحوري الذي نهض به لا فقط في مخاطبة الأوروبيين حول خطر الهواية الذي يتهدد أوروبا، وإنما أيضا في إذكاء التشدد المناهض للاستعمار. اقترح سارتر تحليلاً للاستعمار بالاعتماد على المفاهيم الماركسية، مع التركيز على الهيمنة الاقتصادية، والإقصاء الاجتماعي والسياسي للمستعمرين. ولعل الجانب الآخر الأهم هو أن سارتر هو الذي كتب مقدمة "معذبو الأرض"

لفرانس فانون، وفيها نبّه ليس فقط إلى أن "أوروبا أحدثت الانقسات والتعارضات، وصنعت طبقات، وخلقت في بعض الأحيان نزعات عرقية، وحاولت بأشكال غير مشروعة أن تزيد من انقسام المجتمعات المستعمرة إلى طبقات"<sup>26</sup>، وإنما ألمع أيضا إلى ما هو أبعد من المقترح الفانوني، إذ أكد على مشروعية المقاومة والثورة ضد المستعمر، ولو اقتضى ذلك تنفيذ عمليات ضد المدنيين. ورغم أن مقدمة سارتر تثير كثيرا من الأسئلة، خاصة فيما يتصل بطريقة الحديث، وبالقارئ الذي يتخيله سارتر أي القارئ الأوروبي الذي ما إذا كانت مفاهيمه عن الإنسانية والعالمية كافية للحكم على حرب التحرير في الجزائر، ومحاولات أخرى مماثلة لتصفية الاستعمار كما ألمعت إلى ذلك الباحثة الأمريكية جوديث باتلر<sup>27</sup> Judith BUTLER، فإن ثمة فكرتين أساسيتين يركز عليهما سارتر انطلاقا من النص الفانوني. تتمثل الأولى في الحاجة الماسة إلى التفكير في مستقبل تصفية الاستعمار، أما الفكرة الثانية فمفادها التشكيك جذرياً في عالمية أوروبا، والتي يجري تكرارها باستمرار من دون أن يتم تنفيذها مطلقاً في المستعمرات، حيث تتناقض الأعمال العرقية للاستعمار، والإمعان في تشويه السكان الأصليين بشكل واضح مع المذهب الإنساني الذي يدّعي أن سائر البشر سواء، ومع قيم الحرية والمساواة والعدالة<sup>28</sup>. ولعلنا لا نجانب الصواب إذا اعتبرنا أن في هذه المقترحات الساترية تكمن كثير من الأفكار التي سيعمل نقاد ما بعد الكولونيالية على تطويرها وتخصيصها مثل التشكيك في سردية الخطاب الاستعماري التي تجعل من أوربا "المرجع" "الوصي" على الكون الإنساني كله، وتفكيك التمثيلات الثقافية الغربية الموجهة بإرادة التسلط والهيمنة،

والدعوة إلى بناء إنسانية جديدة مضادة لـ "الإنسانية الغربية".

## 2.2 النظرية الفرنسية

إذا كانت جذور دراسات ما بعد الكولونيالية تضرب عميقا في الفكر المناهض للاستعمار إبان الخمسينيات، فإن الفورة التي شهدتها العلوم الإنسانية والاجتماعية منذ السبعينيات مستفيدة من تيار ما بعد البنيوية وما بعد الحداثة لا يقل أثرها من حيث الدور الحاسم في الولادة الفعلية لهذا الحقل. لقد تميزت النظرية الفرنسية في هذه الفترة بحضور قوي في مسالك الآداب والعلوم الإنسانية بالجامعات الأمريكية، كما خضعت نصوصها لقراءات واسعة من أهم مقوماتها فصلها عن سياقها الوطني، بهدف إعادة تملكها وتسخيرها لتأدية دور مؤثر في النقاشات الاجتماعية والسياسية المعاصرة في الولايات المتحدة الأمريكية<sup>29</sup>. في هذا السياق، ينبغي الانتباه إلى أمرين مهمين: أولهما أن النظرية الفرنسية تشتمل على مجموعة واسعة من المثقفين الفرنسيين الذين نالوا في الحقل الثقافي الفرنسي اعترافا غير كامل لم يتم تداركه إلا في سنوات الثمانينات، أما الأمر الثاني فيعود إلى كون غالبية هؤلاء المثقفين لم يعرف عنهم أنهم اهتموا بمسألة الاستعمار وما بعد الكولونيالية. ورغم أن مفهوم النظرية الفرنسية يكاد يغطي على الاختلافات بين هؤلاء المفكرين، فإنه من الممكن الإمساك بالعديد من الخلاصات والاستنتاجات التي سيتم تطويرها على نحو كامل في دراسات ما بعد الكولونيالية. وعليه، فإن البحث في المرتكزات والأسس التي قام عليها التأثير بالنظرية الفرنسية، ينبغي أن يتجه، بحسب بانسيل، ليس إلى الموضوعات التي اهتم بها

هؤلاء المثقفون، وإنما إلى المنظورات النقدية والمناهج التي وظفوها في أعمالهم.

يُميز بانسيل في النظرية الفرنسية بين مفكرين ترتبط أعمالهم بدرجات مختلفة إما بالماركسية أو البنيوية، ومن بين هؤلاء لوديس ألتوسير، بيير بورديو وكلود ليفي ستروس. ورغم أن أعمال هذه المجموعة تندرج ضمن النظرية الفرنسية، فإنها تبدو أقرب إلى التقليد المناهض للاستعمار منه إلى فلسفة ما بعد الحداثة. أما المجموعة الثانية فتضم ليوطار، وميشيل فوكو، ودولوز، ولاكان، وديدا، وكريستيفا، وبودريار. ويشكل التحليل النفسي الأرض المشتركة التي يلتقي عليها فكرهم متسلحا بمنظورات مختلفة، وإن كان ما يشغلهم هو هاجس التفكير في اللاوعي بغض النظر عن تعدد التأويلات واختلافها. وإذا قارنا بين الأجوبة التي يقدمها مفكرو المجموعة الأولى الذين تستند أبحاثهم إلى النقد المادي أو البنيوي عن الأسئلة الأكثر ارتباطا باهتمامات ما بعد الكولونيالية، بالأجوبة التي نلفها لدى مفكري المجموعة الثانية، سنلاحظ أن مفكري المجموعة الثانية استطاعوا، بتأثير من نيتشه وهابيدغر، أن يكشفوا عن معاني جديدة حيث تبدو المهمة الأساس للفكر والفلسفة كامنة في تفكيك سرديات الحداثة وذلك بنقد مقولة الذات، واستعمال منهج تحليل الخطاب عند فوكو لتفكيك الأفكار والمقولات الغربية ذات الطبيعة الناجزة والكلية. ومن هذه الزاوية يستمد تراث النظرية الفرنسية جدارته لأنه، مثل أي فكر نقدي معني بإنتاج فهم عميق بالزمن الحديث، استطاع أن ينتزع لذاته فضاء مناسباً في الإنتاج الفكري والنظري والثقافي<sup>30</sup>.

في هذا السياق يرى بانسيل أن ميشيل فوكو وجاك دريدا يعدان من أكثر المفكرين الذين ألهموا الباحثين في ميدان دراسات ما بعد الكولونيالية إلى

عمله، خاصة كتابه بعنوان: أحادية الآخر اللغوية أو في الترميم الأصلي (1996) الذي يستكشف فيه الاستعمار من زاوية الحرمان من اللغة الأم، وإجبار السكان الأصليين على تعلّم لغة المستعمر. ويبيّن دريدا في هذا الكتاب أيضا أن سياسة المستعمر اللغوية كانت تقوم على منع الأوروبيين من تعلم اللغة العربية بالتقليل من قيمة هذه اللغة التي هي نتاج حضارة مسلمة يُنظر إليها على أنها أقل شأنًا، وعلى العنصرية الاستعمارية، والفصل بين الأوروبيين والعرب. ورغم أن دريدا لم يلق الاستقبال الذي يستحقه في فرنسا، فإنه حظي بشعبية كبيرة في الولايات المتحدة. فقد شارك في كثير من المؤتمرات، ودرّس منذ بداية السبعينيات في العديد من الجامعات الأمريكية. وربّما لهذا السبب، سيتم الاستشهاد بعمله بشكل أساسي، واستثماره في أقسام الأدب حيث تم تطوير دراسات ما بعد الكولونيالية في البداية. والواقع أنه إذا تأملنا كتابات منظري ما بعد الكولونيالية في الفضاء الأنجلو أمريكي، لوجدنا أنهم يستمدّون من النظرية التفكيكية الأدوات والمفاهيم التي تُتيح لهم تفكيك ونقد الخطابات الغربية حول الاستعمار والمستعمرين، والشتات، والآخر، وتحليل أبعاد الهيمنة الاستعمارية وعواقبها في فترة ما بعد الكولونيالية.

## 2- ظهور دراسات ما بعد الكولونيالية

### 2.1- دراسات التابع

يشير ميدان دراسات التابع *Les subaltern studies* الذي ظهر في الهند إلى المشروع العلمي الذي وضع أسسه راناجيت جوحا، واجتمع حوله مجموعة من المؤرخين الشباب من طراز غاياتاري سبيفاك ودبيش شاكرابارتي اللذين كانت مساهمتهما رائدة في تكوّن دراسات ما بعد الكولونيالية، إضافة لجان

موضوعات وإشكاليات جديدة. فما كان في الإمكان أن يتم تفكيك التعالق بين القوة والمعرفة في الاستشراق والرواية الأوروبية خلال القرن التاسع عشر، خاصّة الأعمال التي تدور أحداثها في مناطق وأراض شاسعة بالهند أو أفريقيا، أو دراسة العلاقات العرقية من دون ذلك الاستيعاب المتبصّر لأعمال ميشيل فوكو، واستقصاءاته للمّاحة حول التاريخ، والمعرفة والسلطة، والخطاب وميدانه، والآليات المادية والأنظمة التي يتم بها السرد، والممارسات الخطابية. يكفي أن يفكر الدارس في ما يقوله فوكو عن سلطة الخطاب: "ففي الخطاب بالذات، يحدث أن تتم فصل السلطة والمعرفة، ولهذا السبب عينه، ينبغي أن نتصور الخطاب، كمجموعة أجزاء غير متصلة وظيفتها التكتيكية غير متماثلة ولا ثابتة. بصورة أدق يجب ألا نتخيل عالما لخطاب مقسّما بين الخطاب المقبول والخطاب المرفوض... بل يجب أن نتصوره كمجموعة عناصر خطابية تستطيع أن تعمل في استراتيجيات مختلفة: الخطاب ينقل السلطة وينتجها، يقويها، ولكنه أيضا يلغنها، يفجرها، يجعلها هزيلة ويسمح بإلغائها"<sup>31</sup>، حتى يتبيّن له أن هذا المنظور له رنين مميز في دراسات ما بعد الكولونيالية. وبنفس القدر يتجلّى تأثير دريدا في هذا الحقل ملموسا وبارزا. ويمكن للدارس لميدان ما بعد الكولونيالية أن يلمس الأثر الدّريدي فيه انطلاقا من عنصرين أساسيين: يتمثل أولهما في المنهجية "التفكيكية" (*déconstruction*) المستمدّة من هايدغر، أما الثاني فيكمن في مفهوم الإرجاء (*différance*) وهو من أكثر المفاهيم التي يعتمدها فيلسوف الاختلاف لتعرية الدلالات والمعاني اللانهائية الكامنة ما وراء النصوص. ومثل فوكو، لم يكن دريدا معنيا بتناول الاستعمار أو فترة ما بعد الكولونيالية، لكن الإشارات إلى الاستعمار تنتشر في

الهيمنة، كما ستعنى بالكشف عن دورها في التحول ليس فقط سياسيًا، ولكن أيضًا اجتماعيًا وثقافيًا في الهند. والسبيل إلى ذلك لم يكن هو استكشاف ثقافة هذه الفئات الاجتماعية فحسب، مع الأخذ مأخذ جدّ قدرتها على الفعل وكذلك الاستقلالية التي تتمتع بها، وإنما أيضا التحرّر من المنطق الذي يجعل تصفية الاستعمار في الهند خطوة نحو بناء أمة حديثة ومستقلة، ويتبين بالتالي أن هذا المنطق ليس سوى جزء من السردية الكبرى عن التقدم الذي تحمله أوروبا<sup>33</sup>.

يتبيّن، من هذا المنظور، أن دراسات التابع اضطلعت بدور محوري في تكوين مجموعة من النماذج التأسيسية لدراسات ما بعد الكولونيالية. ومن أهمّ هذه النماذج النقد الجذري لمفهوم الحداثة النابع من فلسفة التنوير، والذي يشير إلى البعد العالمي للسيرورة التاريخية التي دشنها الغرب، كما يفترض أن أوروبا تشكل المرجع الأساس والنهائي لذلك التطور الذي تهدف كلّ المجتمعات إلى تحقيقه. وكذلك التشكيك ليس فقط في أهلية المؤرخين الغربيين واحتكارهم المعرفة المنتجة حول المناطق غير الأوروبية، وإنما أيضا في الموضوعات والقضايا التي تندرج ضمن مجالات الاهتمام الخاصة بهم، والتي تحتلّ فيها قضايا الاستعمار وما بعد الكولونيالية موقعا محتشما. ففي هذا التفكيك الذي ينصبّ حول المعرفة الغربية، وضروب التمثيل التي تستبطنها عن الثقافات والشعوب غير الأوروبية، تتجلى أهمّ مواقع التقاء هذا المشروع بالعمل النقدي المؤثر الذي نهض به إدوارد سعيد.

## 2.2- إدوارد سعيد:

يربط العديد من المؤرخين بين ظهور كتاب "الاستشراق" لإدوارد سعيد، وهو عمل يعنى بدراسة العلاقات الفكرية لأوروبا بالشرق بوصفها علاقات

باركاش وبارتا شاتارجي اللذين يعدّان من أبرز المشتغلين بالتاريخ الهندي الحديث.

تكمّن الأهداف الرئيسة لدراسات التابع في تجاوز أهمّ الاتجاهات الكبرى السائدة منذ السبعينات حول التاريخ الحديث للهند. يتعلق الأمر باتجاهين بارزين يتركز أحدهما على التاريخ السياسي والاقتصادي للهند المستعمرة، كما يهتم بالنخب الهندية خاصة الطبقات الشعبية في المدن، من منظور ماركسي، ودورها في تصفية الاستعمار واستقلال الهند. أما الثاني فيتميز بكونه متأثرا بالأسطغرافيا الاستعمارية، إذ يعيد إنتاج بعض افتراضات الخطاب الاستعماري حول "الرسالة الحضارية" لبريطانيا. وعليه، فإن ما يكتسي أهمية كبيرة في هذا المشروع العلمي، هو قدرة هؤلاء المؤرخين ليس فقط على التحرّر من الأطر النظرية القديمة الموروثة من التقاليد الإنجليزية في كتابة التاريخ، وإنما أيضا في الاستفادة من مجموعة من المفكرين مثل أنطونيو غرامشي وميشيل فوكو لوضع الهيمنة الكولونيالية موضع تساؤل وتفكيك، وتأسيس تاريخ من الأسفل يستعيد دور التابع في تشكيل وبناء التاريخ الخاص به. فنورات الفلاحين التي كان يُنظرُ إليها على أساس أنها تبدي وعيا متخلّفا، وأن هذا الوعي لا يتسق تماما مع منطق الحداثة أو الرأسمالية المؤسس، ستأخذ أهمية حاسمة لدى منظري دراسات التابع. فالفلاحون، بحسب راناجيت جها، ليسوا ضحايا من المفارقة التاريخية في عالم كولونيالي حديث، بل معاصرين فعليين وجزء جوهري من الحداثة التي أدّى إليها الحكم الكولونيالي في الهند<sup>32</sup>. وهنا تكمن نقطة في غاية الأهمية، ذلك أن دراسات التابع فيما هي تعري على أوهام ما بعد الاستقلال، ستبدي اهتماما غير مسبوق بالأصوات المنسية الواقعة تحت ثقل

غير معزولة عن فكرة السيطرة والتوسّع الإمبريالي<sup>34</sup>، وتكون ميدان دراسات ما بعد الكولونيالية الذي من بين أهدافه الرئيسية بناء مساحة للتفكير "تمكّن الأوروبيين وغيرهم-على حدّ سواء-من التحرك في المجال نفسه، في محاولة التغلب على الحالة الاستعمارية التي جعلت أحدهما غير قادر على التفكير، وجعلت الآخر غير قادر على قراءة مصطلحات عالم ناشئ"<sup>35</sup>. يتميز كتاب الاستشراق بأن مؤلفه يجمع فيه بين مفاهيم ميشيل فوكو ومقترحات النظرية الفرنسية في مرحلة طبعها كذلك المساهمة الرائدة لتيار دراسات التابع. يهدف إدوارد سعيد من ذلك إلى تفكيك التمثيلات الغربية عن الشرق، من منظور نقدي، يشغله هاجس إظهار جمود "المعرفة" والخيال حول الشرق، والتي هي بمثابة التظاهرات الثقافية لرغبة الغرب في السيطرة على العالم. إن أي دراسة للاستشراق لا تنظر إليه بوصفه خطاباً لن يكون باستطاعتها، بحسب إدوارد سعيد، أن تفهم النظريات والآليات التي مكنت الثقافة الغربية من بسط السيطرة على الشرق وخلفه، من وجهة النظر السياسية والاجتماعية والعسكرية والأيدولوجية والعلمية والخيالية خلال الفترة التالية لعصر التنوير.

بالانطلاق من هذه المقاربة التي يستفيد مؤلف "الثقافة والإمبريالية" في تركيبها من فوكو وأنطونيو غرامشي، يبيّن إدوارد سعيد أن القراءات التقليدية، وخاصة الماركسية، للاستعمار من حيث الهيمنة والاستغلال الاقتصادي، وإدارة سياسات الشعوب الأصلية أو الحكم عن طريق العنف، لا يمكن فهمها إلا إذا تم ربط هذه التقنيات بمجموعة كاملة من الافتراضات المسبقة، والتمثيلات والصور النمطية المتجذرة بعمق في ثقافة الدول الاستعمارية. إن فهم هذه الأحكام المسبقة، يتطلب البحث في مصادرها

وأصولها التي ترتدّ إلى ما قبل عصر الأنوار. ورغم الانتقادات التي تعرّض لها كتاب "الاستشراق" إبان صدوره، خاصة من قبل مجموعة من المستشرقين من طراز برنار لويس ومكسيم رودنسون وجاك بيرك، فإن هذا المؤلف يبقى من الأعمال المؤسسة ذات القيمة النظرية والتطبيقية في ميدان دراسات ما بعد الكولونيالية، خاصة عندما يُضاف إلى مجموعة من الأعمال الأخرى اللاحقة التي اضطلع فيها إدوارد سعيد بتفكيك التواطؤ بين الثقافة والإمبريالية، والتمثيلات الغربية في وسائل الإعلام المتحيزة ضدّ الإسلام والعرب والفلسطينيين. من هنا يعدّ كتاب "الاستشراق" بوصفه مصدر إلهام لحشد واسع من المثقفين من العالم الثالث أو ما يسمى اليوم بدول الجنوب، الذين درسوا في الجامعات الغربية، وكانوا مهتمين لتبني هذا المنظور النقدي حول الخصائص الأساسية للنصوص التي تتناول الاستعمار<sup>36</sup>.

### 3- المجالات البحثية لدراسات ما بعد الكولونيالية

من بين الأهداف الأساسية التي تروم تحقيقها دراسات ما بعد الكولونيالية، تجديد المعرفة التاريخية والانتقال بها من ذلك المفهوم المعياري القديم عن التحقيب، الذي يشمل التاريخ القديم، وتاريخ العصور الوسطى، والتاريخ الحديث، والتاريخ المعاصر، الذي ظلّ حتى وقت قريب بمثابة الخيط الناظم لعمل المؤرخين في أوروبا، إلى الاهتمام بالفترة الطويلة التي تمتدّ من القرن الخامس عشر الميلادي حيث خاض الأوروبيون رحلات استكشافية كبرى، إلى التحقيقات الحديثة لما بعد الاستعمار التي تتعيّن بوصفها الموضوع الرئيس لدراسات العولمة<sup>37</sup> *globalization studies*. وبمقتضى هذا المسعى، فإن الفترة الاستعمارية تعدّ جزءاً من سيرورة اجتماعية، وسياسية أو اقتصادية طويلة جداً. إن الجديد الذي

بالمنهجية التي اعتمدها إدوارد سعيد في دراسة الاستشراق، تلك الدراسة التي تهدف إلى إعادة التفكير فيما اعتبر لقرون فجوة لا يمكن تجاوزها تفصل الشرق عن الغرب<sup>38</sup>. أما الرأي الآخر فيرى أصحابه أن ما بعد الكولونيالية تمثل مقاربة خاصّة تتقصد، بغضّ النظر عن أيّ تحقّق استعماري، إلى فتح إمكانيات لا نهائية لدراسة التجارب الامبراطورية القديمة، كالإمبراطوريات القديمة اليونانية والرومانية، والإمبراطوريات الإفريقية في العصر الوسيط ومجتمعات آسيا الوسطى. إن الاهتمام بالتاريخ في دراسات ما بعد الكولونيالية من أجل الكشف عن الذرائع الحضارية المزعومة والأساليب القسرية الفاحشة التي أوجدت الإمبراطورية الاستعمارية، يجب ألا يغطي على الأهداف السياسية التي هي في صميم تكوّن هذا المشروع العلمي. إن البادئة *ما بعد* تترجم أيضا الإرادة القوية، من خلال التفكيك المنهجي والإبستمولوجي للأنظمة الملموسة والمعرفية للهيمنة، من أجل بناء عالم جديد والتخلص من خبث العنصرية والتمييز الذي تزرعه النسبية الثقافية العالمية، مدفوعة بالتبادلات البشرية والثقافية المتواصلة للشئات المعولم<sup>39</sup>. ومن أبرز باحثي ما بعد الكولونيالية الذين يهتمون ببحث مسألة تصفية الاستعمار، يمكن التفكير بـ رامون غروسفوجل Ramon Grosfogel، بول هونتوندي Thandika Paulin J. Hountondj، تانديكا مكانداوير Souleymane Bachir، سليمان بشير Mkandawire، بالإضافة إلى مختبر العلوم الاجتماعية بدكار CODESRIA.

إن أكثر إسهامات ما بعد الكولونيالية أصالة وجدة، بحسب بانسيل، هي تلك التي تركّزت بالأساس على عملية قلب المنظور حول التاريخ الاستعماري القديم، بهدف استكشاف التمثيلات والتداعيات

تقدّمه دراسات ما بعد الكولونيالية في هذا السياق، هو المقترح القاضي بتجاوز التسلسل الزمني السياسي لتصفية الاستعمار. فالدراسات التي تبلورت منذ الستينيات حول الاستعمار الجديد والإمبريالية الجديدة، توضح الروابط المكشوفة بين فترات الاستعمار وما بعد الاستعمار في مجال العلاقات الاقتصادية الدولية. فالدول المستقلة حديثاً، والتي كانت أثناء الاستعمار تصدر المواد الخام، لا تزال اليوم تحت التبعية للميتروبولات القديمة والسوق العالمية. ومن مظاهر الهيمنة التي لا تزال مستمرة، الاتفاقيات الاقتصادية والسياسية والعسكرية التي تتم بين الدول ذات الماضي الاستعماري والمناطق التي كانت مستعمرة من قبل، وهي اتفاقيات تتسم بكونها غير عادلة ولا تكثرث إلا لمصالح القوى الاقتصادية المسيطرة. ويقدم بانسيل مثالا بفرنسا التي تربطها اتفاقيات يمكن وصفها بأنها اتفاقيات غير متكافئة، بكثير من الدول الإفريقية التي كانت مستعمرة سابقا، مما يتيح لها إمكانيات الحفاظ على مصالحها الاقتصادية السابقة، وترسيخ نموذجها الثقافي. ويتبين من هذا المثال وغيره عدم وجود انقطاع بين تاريخ الاستعمار وما بعد الاستعمار، وهو ما يتجلى أيضا في حالة الإمبراطورية البريطانية السابقة من خلال إنشاء الكومنولث.

لا شك أن الجدل حول الزمنية في دراسات ما بعد الكولونيالية يرتدّ كذلك إلى ضروب الاختلاف بين الباحثين بخصوص دلالات المصطلح وكيفية كتابته. فهناك إذاً، المنظور الذي يشدّد أصحابه على أن البادئة *ما بعد* تدلّ على تسلسل زمني يشمل الاستعمار وما بعد الاستعمار، بشكل يستوعب الفترة الاستعمارية بمعناها الأوسع، بدءاً من القرن الخامس عشر الذي شهد الاكتشافات الأوروبية الكبرى، إلى الفترة المعاصرة. ويندّج هذا التصور،

وصفات أفرادها الشخصية وقدراتهم العقلية وأخلاقهم وثقافتهم عمومًا<sup>41</sup>، فإن أهمية المنظور النقدي ما بعد الكولونيالي المؤسس على الاهتمام بمدى زمني أوسع، تتمثل في إقدار الباحثين على تقييم استمرارية أنظمة التمثيل في هذه العواصم الغربية نفسها. أما المثال الملموس الذي يقدمه بانسيل فيتعلق بالأمريكيين من أصل أفريقي. فمن الصعب جدًا، عند العمل على تاريخ أو علم اجتماع الأمريكيين من أصل أفريقي في الولايات المتحدة تجاهل الإرث الطويل للعبودية، ثم تجاهل التمييز العنصري، والصور النمطية التي تستمر في الالتصاق بهذه الجماعة، كما لا يمكن تجاوز هذه العوامل عند شرح الظروف الاجتماعية المحددة لهذه المجموعة في الولايات المتحدة، والتي تتميز بمعدلات بطالة مرتفعة، كما أن احتمال التعرض للسجن أعلى بكثير من الجماعات الأخرى، ناهيك عن الأمكنة الاجتماعية الضيقة التي يتم حشرها فيها<sup>42</sup>. وهذا أيضا ينطبق على فرنسا، حيث عمل الاستعمار على ترسيخ مجموعة من التمثيلات والصور النمطية عن شعوب المناطق التي تمت السيطرة عليها سابقا. فالاستقلال السياسي للمستعمرات الفرنسية لم يغير هذه التمثيلات في العمق، وهذا ما تكشف عنه أشكال العنصرية المتزايدة ضد المهاجرين من أفريقيا ومن بلدان المغرب العربي<sup>43</sup>. ومن الباحثين الذين يهتمون بدراسة هذه الإشكالية يمكن الإشارة إلى أحمد بوبكر Ahmed Boubeker، ناصيرة قنيف سويلما Cris Guénif-Souilamas، كريس بوشمان Nacira، كريستيل هاميل Christelle Hamel، باتريك سيمون Patrick Simon.

من المؤكد أن القضايا والموضوعات التي فكرت فيها دراسات ما بعد الكولونيالية هي أوسع من أن يتم حصرها في الإشكاليات المتعلقة بالتمثيلات

المتعلقة بالاستعمار داخل العواصم الغربية نفسها. فإذا كان تاريخ الاستعمار قد تم درسه وبحثه في هذه العواصم، فإن تداعياته السياسية والاجتماعية والاقتصادية على الشعوب التي عانت من ويلات ظلّ يغطيها الإهمال والنسيان. وبعد العمل الذي قام به إدوارد سعيد في دراسة الاستشراق والتمثيلات الغربية حول الشرق رائدا في هذا الاتجاه. يوصف منظور إدوارد سعيد بأنه جدي، فالتمثيلات حول الشرق المتخيل، وتزايد الصور النمطية عن "الشرقيين"، ليست فقط نتائج لاستعمار جزء كبير من آسيا والشرق الأدنى من قبل القوى الاستعمارية، وإنما هي أيضا من صميم الاستعمار ذاته، والذي لم يكن حصوله ممكنا لو لم يقيم الغرب، على المدى الطويل، بترسيخ التراتبية الحضارية ثم العرقية التي تضع أوروبا والأوروبيين في القمة. هذا النقد الثقافي يتحدى التسلسل الزمني الذي يفصل بوضوح بين فترات الاستعمار وما بعد الاستعمار، مما يبدو معه أن الاستقلال لم يكن له سوى تأثير ضئيل على أنظمة التمثيل هاته التي استمرت تأثيرها قائما. وهناك العديد من الباحثين والكتاب الذين يشتغلون على هذه المسألة مثل فالانتان مودامب Valentin Mudimbe، جون بيير جاكمان Jean-Pierre Jacquemin، ومجموعة البحث Achac<sup>40</sup>.

بما أن "للعنصرية تاريخ طويل تقاطع في الماضي مع الاستعمار والعبودية، وقد تفاعلت منذ نشأتها مع النزوع القديم إلى إضفاء صفات وراثية على الفوارق الطبقيّة بين العائلات الأرستقراطية وعامة الناس في الدول المستعمرة. وشهد القرن التاسع عشر نزعة علمية تحمست لتطبيق الاكتشافات العلمية في العلوم الطبيعية على الإنسان والمجتمع، بإسقاط مناهج حقول مثل البيولوجيا بتفرعاتها المختلفة على العلاقة بين البنية الجسدية لمجموعات بشرية

ليس فقط إمكان استجواب الإنتاج الفكري الغربي الذي قد يكون مشاركا في هذه "الهيمنة المعرفية"، وإنما أيضا معرفة الموقع الذي منه تصدر الكتابات والكلمات حول الآخرين.

من بين المجالات الأساسية التي يستكشفها نقد ما بعد الكولونيالية ذلك المجال المتعلق بتحليل الذاتية مابعد الكولونيالية Subjectivité postcoloniale. في هذا السياق يظهر مجموعة من الباحثين كيف يقترن النزوع من قبل المستعمر نحو السيطرة والهيمنة إلى إحداث شروخ عميقة في نفسية المستعمر اثناء على الثقافة من جهة، وترسيخ التمثيلات الثقافية من جهة أخرى. تمتلك ثقافة ولغة المستعمر قوة مدمرة تُسخرُ ضد القيم الثقافية الأصلية للمستعمر والتي يُمعنُ المستعمر في الحطّ من شأنها بشكل ممنهج. هذا الوضع يولّد وضعية المابين L'entre-deux النفسية والثقافية التي يجد المستعمر نفسه واقعا في أحابيلها، فيشعر بالانقسام بين انتمائه الثقافي الأصلي، والتعريفات الجديدة المستمدة من الثقافة المستوردة من أوروبا وممثلها. يخلق هذا الانقسام لدى المستعمر الكراهية إزاء ذاته. كيف يستطيع الجمع بين الانتماء لثقافته وأصوله وأسرته بينما هو يفكر من خلال لغة المستعمر. هناك مجموعة من الاستراتيجيات التي يعتمدها الاستعمار لخلق هذه المعضلة للمستعمر، منها تأنيث من هم في وضع أدنى، والنظر إليهم على أنهم ما زالوا في طور الطفولة. ومن منظور بانسيل، فإن تأنيث من هم في وضع التابع هو في الواقع عملية طويلة الأمد، متأصلة في بناء الأعراق منذ القرن الثامن عشر<sup>46</sup>. إن الشعور بالدونية الذي يرسّخه الاستعمار في نفسية المستعمر بشكل ممنهج، لا يتعلّق فقط بالوضع الذي يعيشه، بل يرتبط أيضًا بفرض تمثيلات ثقافية كتأنيث الذات، مقترنة

الثقافية، ففي الواقع ثمة مجموعة من الإشكاليات الأساسية التي ترتبط بالاستعمار وما بعد الاستعمار، خاصة بعد الأفق التي تمّ اجتراحها على مستوى التفكير في الغرب وأنظمتها الثقافية التي يسخرها في عملية السيطرة والإخضاع. ثلاثة جوانب أساسية يتركز عليها الاهتمام في هذا الحقل، أولها الصدى الذي يثيره الاستعمار في المناطق المستعمرة، وفي المتروبول. أما الثاني فيتمثل في التخلي عن المنظور الذي يجعل من الغرب محرك التاريخ، والعمل على إظهار أن المجتمعات غير الأوروبية قد تغيرت وفقًا لتاريخها الخاص. والثالث مفاده أن التابع كان دائما في قلب الحضارة، وأن المنظور المعاصر الذي يمتلكه حول التاريخ أجبر أوروبا للمرة الأولى على الخضوع للتحليل من الخارج<sup>44</sup>. من هذا المنظور، تعدّ ذاكرات الاستعمار والبنية العنصرية التي نشأت على صرح العبودية المسبق<sup>45</sup>، من بين أهمّ الإشكاليات التي جرى بحثها في الولايات المتحدة الأمريكية وفي فرنسا وبريطانيا. ورغم الاهتمام المتزايد بذاكرة الاستعمار في فرنسا، فإن بانسيل يسجل أن هذا المجال تحقّقه صعوبات عديدة، بحكم الوضع الذي توجد عليه فرنسا والذي لا يساعد على القيام بمراجعة نقدية للحقبة الاستعمارية، وهذا ما يفسّر غياب متحف للاستعمار حتى اليوم. ويضاف إلى الاهتمام بذاكرة الاستعمار، موضوع العنصرية الذي مثل أحد أبرز مجالات الاهتمام في دراسات ما بعد الكولونيالية. لا تنفصل النزعة العرقية عن الاستعمار، فهي من بين الأسس التي قام عليها ترسيخ السلطة في المستعمرات، كما أنها تمثل مصدر الهيمنة الاستعمارية للغرب، وبالتالي يتبيّن من منظور ما بعد الكولونيالية أنها مسألة محورية إذ تتيح فهم الشروط الثقافية للاستعمار، وكيف تم الربط بين التنوير والعقل لتكريس التراتبية العرقية، مما يفتح

تناول مختلف تعقيدات كتابة ما بعد الكولونيالية، وتنوع منابعها الثقافية تناولاً وافياً، فالنظريات الأوروبية ذاتها انبثقت من تقاليد ثقافية معينة أخفتها الأفكار المزيّفة عن العالمي<sup>48</sup>، فإنها(= أي دراسات ما بعد الكولونيالية) قد أثارت نقاشات واسعة، كما تعرّضت افتراضاتها النقدية والمنهجية للنقد والمساءلة رغم أنها تمثل تفكيراً متمرداً "ينحاز إلى الجرأة الضرورية الكفيلة بإخراج الفكر ذاته من سلطة المثل، وذلك لن يتأتى إلا إذا كانت القراءة ذاتها منبثقة عن الحاضر الذي يحين الفكر ويجعله مستجيباً للأسئلة الجديدة التي يولدها الزّاهن"<sup>49</sup>. وفي صميم النقاشات التي أثارها دراسات ما بعد الكولونيالية ما يرتبط بالحقبة الزمنية التي تهتم بها، وهي حقبة طويلة تمتد من القرن الخامس عشر إلى بدايات العولمة. وعليه، ينظر النقاد والمؤرخون إلى الاهتمام بهذه الحقبة بوصفه خرقاً للتقليد الغربي القائم على تحقيق يشمل التاريخ القديم، وتاريخ القرون الوسطى، والتاريخ الحديث، والتاريخ المعاصر والذي يتعيّن بوصفه نقطة الارتكاز التي تقوم عليها الدّراسات التاريخية، وهو ما يُمثلُ، برأيهم، عائقا أمام إمكانية بناء نظرية متماسكة لما بعد الكولونيالية. لكنّ المعارضين على هذا الخط يتناسون أن المسألة الاستعمارية هي جزء من عمليات متجذّرة في التاريخ، وأن موضوع الفترة الطويلة ليس اختراعاً لما بعد الكولونيالية، بل هو تطبيق لطرائق ترسّخت منذ سنة 1930 مع مؤرّخين من طراز مارك بلوخ، لوسيان لوفير، دون الحديث عن شارل سينوبوس الذي فكّر جدّياً بهذا الأمر في نهاية القرن التاسع عشر<sup>50</sup>. وعليه، فإن تجاوز الحدود التي يفرضها هذا المعيار يمكن أن يكون سبيلاً جدّياً لبناء معرفة مغايرة تكشف عن كاوس (chaos) التاريخ.

بالمنافسة على الذكوزة التي يفرضها المسيطر، ما يثير الرغبة لدى المستعمر في استعادة الرجولة المقدمة على أنها مرغوب فيها. وبما أن موقع الرجولة هو إلى جانب المستعمرين، فإن جزءاً من المستعمرين لا يكون أمامهم أي خيار سوى الرّجوع إلى هذا النموذج. لذا فإن من أبرز مساعي دراسات ما بعد الكولونيالية هو تفكيك الانبهار بالمستعمر غير المفكّر فيه من قبل المستعمر، والذي يفسّر استمرارية المشروع الاستعماري، بعد الاستقلال، من قبل الأشخاص الذين وقفوا ضده. وتعدّ المساهمة الأدبية ما بعد الكولونيالية شديدة التأثير فيما يتعلّق بالتهجين الثقافي الذي يحدث من قبل مجتمعات المستعمرين، بنفس القدر الذي يحدث به من قبل مجتمعات المستعمر. وهناك مفاهيم عديدة يعتمد عليها نقاد ما بعد الكولونيالية لدراسة هذا التأثير، لكن مفهوم التهجين يظلّ من أكثرها(=المفاهيم) حضوراً بحكم الفعالية التي ينطوي عليها في الكشف عن التأثيرات المتبادلة بين ثقافتَي المستعمر والمستعمر. ومن بين ما تحتفي به مجموعة من الأعمال الروائية ما بعد الكولونيالية، تلك القدرة التي يمتلكها الإنسان على العبور من ثقافة لأخرى، بحيث يتعذر اختزاله في هوية محددة أو جوهرية<sup>47</sup>.

#### 4- نقد دراسات ما بعد الكولونيالية

على الرّغم من أن دراسات ما بعد الكولونيالية استطاعت أن تفتح ميادين جديدة للبحث في مجالات العلوم الاجتماعية والدراسات الأدبية، مستفيدة من مجموعة من الأدوات والآليات المستمدّة من اختصاصات وعلوم مختلفة سواء أكانت سابقة أو معاصرة، ما أهلكها لماء الخانة الفارغة التي تركها "عدم قدرة النظرية الأوروبية على

لقد لوحظ أيضا على دراسات ما بعد الكولونيالية إفراطها في الاهتمام بالأعمال الأدبية على حساب النصوص التاريخية؛ الأرشفة والمذكرات، وربما يرتدّ هذا التركيز على الأدب ليس فقط إلى الظروف التي نشأت فيها، ذلك أن تكون هذا الحقل المعرفي ارتبط أساسا بمسالك الأدب والأدب المقارن في الجامعات الأمريكية، وإنما أيضا إلى كون "الأدب" يقدم واحدا من أهم طرق التعبير عن تلك المدركات الجديدة؛ فمن خلال كتابة الواقع اليومي الذي خبرته الشعوب المستعمرة، ومن خلال الفنون الأخرى مثل الرسم والنحت والموسيقى والرقص، أصبح هذا الواقع مشقرا، كما أصبح تأثيره عميقا<sup>51</sup>. ومن منظور المعارضين على هذا التوجّه، فإن المشكلة لا تكمن فقط هاهنا، وإنما ترتبط أساسا بطبيعة النص المدرّس، فإذا كان من المبرّر العمل على النصوص الأدبية من منظور كونها تمثل وثائق تاريخية، فإنّ هذه النصوص لها حدودها التي تفرض على الباحث التروي والحذر. ومن هذه الزاوية، يرى بانسيل أن دراسات ما بعد الكولونيالية التي تأثرت بشدّة بالمنعطف اللساني linguistic turn إبان السبعينيات، اتجهت، متأثرة بفوكو، إلى دراسة الوقائع على أنها تشكيلات خطابية، مما أدّى إلى إهمال غير مقبول من الناحية العلمية للشروط المادية الملموسة للفاعلين، مثل تنوع المواقف والعلاقات الاجتماعية في الإمبراطوريات الاستعمارية<sup>52</sup>. وعليه، لا يأتي هذا النقد فقط من قبل المؤرّخين الماركسيين الذي يصفون هذه المنهجية بأنها انحراف خطير يتعارض مع المسلّمة التي تقول بأن الشروط المادية للأفراد هي التي تحدّد أفعالهم وذواتهم، وإنما يأتي أيضا من بعض نقاد هذا التيار، من طراز نيل لازاريس Neil Lazarus أو آن ماكلينتوك Anne McClintock اللذين ينتقدان

الاهتمام الأقل الذي تبديه ما بعد الكولونيالية بالآثار المادية للسيطرة الاستعمارية خلال حقبة الاستعمار وما بعد الكولونيالية. وكمثال على هذا النقد، يتوقف بانسيل عند النقاشات المختلفة التي أثارها صدور كتاب غياتاري سبيفاك بعنوان: هل يستطيع التابع أن يتكلّم؟ فمن منظور المؤرّخين الماركسيين، فإن التابع كان دائما، سواء على المستوى الفردي أو الجماعي، قادرا على أن يتكلّم كما تشهد على ذلك أشكال المقاومة التي خاضها ضدّ السيطرة الاستعمارية، وعليه فإنّ الصيغة التي ينبغي أن يُطرح بها سؤال سبيفاك هي: في أي ظروف وبأي أشكال يتحدث التابعون عن أنفسهم؟

يطاول هذا النقد، إضافة لما سبق، المشروع السياسي لما بعد الكولونيالية. ويتبيّن من خلال جهود مجموعة من الباحثين الذين يهتمون بتفكيك التمثيلات الثقافية الغربية حول الشعوب والمناطق التي كانت مستعمرة من قبل، أنهم يدافعون عن نزعة إنسانية جديدة مغايرة لتلك التي نادى بها مفكرو عصر الأنوار<sup>53</sup>. فهم يريدون عالما تغيب فيه العنصرية والأحكام القبلية، ويفتتح على الهويات والانتماءات المتعددة. وبينما يتركز البحث في دراسات ما بعد الكولونيالية على الخطابات، والهويات المتعددة، والذاتيات والدفاع عن الاختلاف الثقافي، فإنّ مناهضي هذا التيار يرون أن تبثّر التفكير على هذه الإشكاليات يؤدي بالأساس إلى غصّ الطرف عن قضايا أساسية ملموسة من قبيل الشروط المادية، والحياة اليومية للفاعلين، والأدوات التي يوظفونها لتطوير مستقبلهم. هذا المنظور النقدي ينصبّ أيضا على بعض المفاهيم التي يستعملها نقاد ما بعد الكولونيالية انطلاقا من منظور كلي يغيب معه أي تفكير فيما تستبطنه هذه المفاهيم أو المقولات من تنوع داخلي، والأمثلة البارزة يُمكن العثور عليها في

الحدود إلى ما له علاقة بتكنولوجيات الاتصال التي غيرت المعيش اليومي للإنسان بشكل جذري. من هذه الزاوية يكمن التحدي الذي تطرحه هذه الإبدالات الجديدة، ومنها كذلك دراسات تصفية الاستعمار وحركات تصفية الاستعمار النسائية، في كون الغرب الذي تدرسه دراسات ما بعد الكولونيالية من زاوية نزوعه الدائم نحو السيطرة والتحكم في الشعوب الأخرى، متسلحا بالهيمنة العلمية والقوة الاقتصادية، ما عاد كذلك في الوقت الراهن، حيث العولمة تتيح منافذ إلى مسارات جديدة أمام الثقافات والشعوب التي كانت مهمشة في السابق من قبل أوروبا.

### على سبيل التركيب:

يتبين أن ربط دراسات ما بعد الكولونيالية سواء بالظروف السياسية والثقافية والاقتصادية التي ظهرت فيها خلال بداية السبعينيات، أو بالظرفية العالمية المعاصرة التي تعيش فيها المجتمعات تحولات متسارعة في ظل العولمة النيوليبرالية المسيطرة التي تزداد معها الهوة اتساعا بين الفقراء والأغنياء، والطبيعة غير المكتملة لتصفية الاستعمار التي تستمر في ترويع كثير من الشعوب، وفي خلق مأساة كثيرة وحالات من الهجرة والشتات، يتبين إذن أن المشروع العلمي لما بعد الكولونيالية، وبغض النظر عن توتراته الداخلية، والانتقادات المختلفة التي توجه له، ما يزال يحظى بأهمية كبيرة، بحكم الموقع الذي يوقره هذا المجال للباحث لما بعد كولونيالي للقيام بأحد أهم أدوار المثقف التي شدد عليها إدوارد سعيد أي معارضة القوة. إن الأثر الفانوني الراسخ في متن هذا المشروع، يجعل من بين أكبر الرهانات بالنسبة للمثقف الإسهام في خلق الوعي الوطني، وفي تشجيع اليقين بالذات لدى التابع. وكما يقول نايجيل سي-

مقولات مثل الاستعمار وأوروبا والمثقفين الغربيين، فهذه المقولات تتميز بكثير من التعدد بحيث يتعذر معه إضفاء أي طابع جوهري عليها، مما قد يؤدي بأي مقارنة إلى السقوط في مهاوي التجريد واللاتاريخية. في هذا السياق يرى بانسيل أنه "بالنسبة لبعض منتقدي دراسات ما بعد الكولونيالية، فإن هذا الخط المتبع يمكن وصفه بأنه غير منتج، لأنه يقوم على ثنائيات وتقاطعات (المستعمر-المستعمر، أوروبا-المستعمرة) تحول دون إعطاء الاعتبار للوضعيات التاريخية المختلفة والمعقدة، كما تؤدي بالنقد لما بعد كولونيالي إلى الانغلاق في التجريد النظري الذي يظل الهدف منه مثيرا للنقاش، كما أن نتائجه الملموسة تتسم بكونها ضعيفة"<sup>54</sup>.

من بين التحديات العديدة التي تواجه دراسات ما بعد الكولونيالية ذلك التحدي المتعلق بقدرة أدواتها وافتراضاتها النقدية على فهم كثير من التحولات المعقدة التي يشهدها العالم اليوم، خاصة مع العولمة وتسارع وثيرة انتشار الثقافة الرقمية عبر العالم. لا شك أن الاستعمار لا يزال تأثيره قائما، لكن الأمر يفرض نوعا من التنسيب. ذلك لأن أوروبا لم تعد قادرة على التأثير كما كانت من قبل، كما أن تعدد الفاعلين على المستوى الجيو سياسي ما عادت معه التقسيمات السابقة مثل الغرب والعالم الثالث قادرة على تقديم مفاتيح أساسية لفهم كثير من المشكلات المطروحة. إن هذه الأسئلة العديدة التي تواجه المشروع العلمي لما بعد الكولونيالية تأتي من تيارات معرفية جديدة مثل دراسات العولمة والدراسات العابرة للقوميات، التي تشدد على أهمية الأخذ في الاعتبار التحولات العميقة التي أحدثتها العولمة والتي لا يمكن اختزالها فقط في التنقل بين أقطار العالم وقاراته المختلفة، بل هي تتعدى هذه

بين فكرهم ووجودهم الخاص. وهذا ما يعززه فريد بوشي بقوله إن المثقفين الفرنسيين سيمثلون "منظورا فرنسيا هاما ومحفزا في الآن نفسه دون أن يمارسوا على إدوارد سعيد، مع ذلك، تأثيرا دائما"<sup>59</sup>. ويقودنا هذا كذلك إلى علاقة ما بعد الكولونيالية بالنظرية التفكيكية لدريدا حيث أجاز الذين فسروا هذا المشروع لأنفسهم الحديث عن هذا التأثير وكأن دراسات ما بعد الكولونيالية لا تتمتع بأي أصالة، بينما الاختلاف يبدو بيننا، ذلك أن دارسي ما بعد الكولونيالية يشددون على العلاقة بين النص والعالم، وعلى أهمية المعنى بالنسبة لمن ينطبق عليه شرط التابع، بينما تقوم التفكيكية على نسف إمكانية وجود المعنى، وكلّ قراءة تمثل إلغاء أو إرجاء لما سبقها. وكما يقول ديبش شاكرابارتي "فالكللمات عندما تكون جزءا من نشاط الحياة، فإنها، قبل كل شيء، تكون لها دلالات مباشرة وعملية"<sup>60</sup>.

### الإحالات والهوامش:

- <sup>1</sup> - بيل أشكروفت- غارث غريفيت- هيلين تيفن، الرّد بالكتابة. النظرية والتطبيق في آداب المستعمرات القديمة، ترجمة شهرت العالم، (بيروت: المنظمة العربية للترجمة، 2006)، ص 16.
- <sup>2</sup> - جورج لابيكا، تحرير الماركسية، مجلة الطريق، العدد الثالث، السنة السادسة والخمسون، ماي 1997، ص 37.
- <sup>3</sup> - حميد دباشي، ما بعد الاستشراق المعرفة والسلطة في زمن الإرهاب، ترجمة باسل عبد الله وطفة (إيطاليا: دار المتوسّط 2015)، ص 43.

<sup>4</sup> - François Qusset , FENCH THEORY , Faucault, Derrida ; Deleuze, et Cie et les mutations de la vie intellectuelle aux Etats- Unis , Editions La Découverte, Paris2005 , p 89.

غبسون إذا كان "لإنسانية جديدة أن تتطور وتنجح، يكون على المثقفين أنفسهم أيضا أن يتطوروا، من خلال نبذ المفاهيم الشاملة التي غرسها التدريب الاستعماري في أذهانهم، ومسألة تطوّرهم هي، في آن واحد، مسألة عملية أكثر مما هي نظرية، وتجربة مادية وعقلية"<sup>55</sup>. وعليه، فما كان من الممكن أن نتصور ذلك الانزياح الذي حدث في كثير من المجتمعات من موقع الرؤية الأحادية التي تجد سندها في التقاليد الثقافية الموروثة، إلى الوعي بأهمية التهجين الثقافي والاختلاف الكامنين في صميم الهوية والثقافة، وهو ما ينتج عنه تدبير التوترات عن طريق التفاوض الذي يقود بدوره إلى ترسيخ قيم العيش المشترك<sup>56</sup>، لولا العمل النقدي الواسع الذي نهض به منظرو ما بعد الكولونيالية في ما يخصّ إعادة النظر في كثير من المنظورات النقدية سواء أكانت موروثة عن الثقافة التقليدية أم عن الاستعمار.

وإذا كان من الممكن أن نتحدث في ما يتعلّق بالمشروع العلمي لميدان ما بعد الكولونيالية عن الأثر الحاسم للنظرية الفرنسية، كما يؤكد على ذلك نيكولا بانسيل ومجموعة من النقاد الفرنسيين، فإن هذا التأثير ينبغي تنسيبه. يتعيّن إذن النّظر إلى هذا المشروع في ضوء ما صاغه من افتراضات تجعل منه مشروعا مضادا، ففي ظلّ ظهور صوت ما بعد كولونيالي فعّال، تغدو كلّ استراتيجيات إضفاء الطابع الأدبي على بنية تراتبية للقوة مرفوضة<sup>57</sup>. وكمثال على ذلك إدوارد سعيد الذي يجسّد الحالة التي من خلالها "كانت اللغة بكل قوتها، والكتابة بدلالة سلطتها، منتزعة من الثقافة الأوروبية المهيمنة"<sup>58</sup>. فإذا كان إدوارد سعيد استفاد من فوكو في بناء تصوره الأساس حول "الخطاب الكولونيالي"، فإنه انتقد المثقفين الفرنسيين لعدم وجود علاقة

revue vingtième siècle, revue d'histoire, 2012/3 N° 115, p.130.

<sup>11</sup> - Jim Cohen et Maria-Benedita Bastom, Quelles possibilités pour les études postcoloniales en France ?, *Africultures* n° 72, 2008, p. 78.

<sup>12</sup> - فريد بوشي، إدوارد سعيد الأنسني الراديكالي. في أصول الفكر ما بعد الكولونيالي، ترجمة محمد الجرطي، تقديم إدريس الخضراوي، (دمشق: دارصفحات 2018)، ص 28.

<sup>13</sup> - Jim Cohen, La bibliothèque postcoloniale en pleine expansion, *Mouvement*, 51, 2007, pp. 166-170.

<sup>14</sup> - لمزيد التوسع انظر دراستنا: ما بعد الكولونيالية. قضايا الهجنة والترجمة الثقافية المنشورة بالمنبر الثقافي العربي ضفة ثالثة على الرابط:

<https://diffah.alaraby.co.uk/diffah/opinions/2020/6/2>.

<sup>15</sup> - Nicolas Bancel, Que faire des postcolonial studies ?, op. cit, p. 131.

<sup>16</sup> - Gisèle Sapiro, George Steinmetz et Claire Ducournau, LA PRODUCTION DES REPRÉSENTATIONS COLONIALES ET POSTCOLONIALES, « Actes de la recherche en sciences sociales », n° 185 /2010, p. 5.

<sup>17</sup> - أشكروفت، الرّد بالكتابة، ص 20.

<sup>18</sup> - نايجل سي. غبسون، فانون. المخيلة بعد- الكولونيالية، ترجمة خالد عايد أبو هديب، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2013)، ص 32.

<sup>19</sup> - يرى غبسون أن "المانوية العنصرية والكولونيالية في العصر الحديث تعودان بجذورهما إلى عصر التنوير الأوروبي الذي رأى في أوروبا مركز العالم وناقل النور إلى "المناطق البعيدة". وطور كل من كانط وهيغل هذه الفكرة، إذ وصفا الرّتي بأنه صبياني وكسول ومتراخ وبطيء، ويفتقر إلى التاريخ والإنسانية ويحتاج إلى تدابير قمعية مثل الاستعباد لإجباره على أن يكون منتجا". فانون. المخيلة بعد- الكولونيالية، ص. 33.

<sup>5</sup> - إدوارد سعيد، الثقافة والإمبريالية، ترجمة كمال أبو ديب، (بيروت: دارالآداب 1994)، ص 80.

<sup>6</sup> - أشكروفت، الرّد بالكتابة، ص 16.

<sup>7</sup> - إدوارد سعيد، تأملات حول المنفى، ترجمة ثائر ديب، (بيروت: دارالآداب 1994)، ص 283.

<sup>8</sup> - Nicolas Bancel, Le postcolonialisme, Collection Que sais-je ? (Paris : Presses Universitaires de France 2019), p. 103.

<sup>9</sup> - Sonia Dayan-Herzbrun, Présentation, revue tumultes, numéro 31, 2008, p. 5.

<sup>10</sup> - يرى نيكولا بانسيل في مقالة بعنوان:

### Que faire des postcolonial studies?

أن الاهتمام الفرنسي بدراسات ما بعد الكولونيالية انطلق منذ سنة 2006 بصدر أعمال ندوة الوضع ما بعد الكولونيالي *La Situation postcoloniale* تنسيق كلود سموت المنظمة من قبل المدرسة العليا للدراسات التطبيقية والعلوم الاجتماعية (EHESS)، وفي نفس السنة خصصت مجلة هيرودوت *Hérodote* عددا خاصا للمنظور ما بعد الكولونيالي، وكذلك مجلة *Labyrinthe*. وفي سنة 2007 أصدرت مجلة *Mouvements* عددا بعنوان: من يخشى دراسات ما بعد الكولونيالية؟، ومع بداية 2008 تزايدت وثيرة ظهور الأعمال في هذا الميدان، مثل كتاب: الغرب المفكك *L'Occident décroche* لـ جون لوي أمسيل، وكتاب: دراسات ما بعد الكولونيالية. كارنفال أكاديمي لـ فرونسوا بايار، بالإضافة إلى ظهور ترجمات لأعمال أساسية في حقل ما بعد الكولونيالية مثل:

*Les Lieux de la culture, une théorie postcoloniale* للباحث هومي بابا، و:

*Les Subalternes peuvent-elles parler?*

لـ غاياتاري سبيفاك، إضافة لمجموعة من الدراسات التي تهمل أدواتها من حقل ما بعد الكولونيالية لتحليل ودراسة الظواهر الاجتماعية والثقافية في المجتمع الفرنسي. ويرى بانسيل أن ما يدعو إلى السأول ليس هو فقط شدة ردّ الفعل في هذه الأعمال وإنما أيضا تأخر التفاعل مع دراسات ما بعد الكولونيالية ودراسات التابع *subaltern studies*، أنظر:

Nicolas Bancel, Que faire des postcolonial studies ?. *Vertus et déraisons de l'accueil critique des postcolonial studies en France*,

<sup>35</sup> - حميد دباشي، هل يستطيع غير الأوروبي التفكير؟ ترجمة عماد الأحمد (إيطاليا: دار المتوسّط 2016)، ص 28.

<sup>36</sup> - فكر ما بعد الاستعمار تيار نقدي وليس درسا أكاديميا، حوار مع المؤرخ الفرنسي جاك بوشيباداس، أجرى الحوار جول نودت، ترجمة صلاح عبد الله، مجلة الاستغراب، ملف ما بعد الاستعمار حيث تستعاد الهيمنة بوسائط أخرى، العدد الثاني عشر- السنة الرابعة- صيف 2018، ص 17.

<sup>37</sup> -Nicolas Bancel, Que faire des postcolonial studies ?, op. cit, p. 132.

<sup>38</sup> -Daniel Lançon, LES RELECTURES D'ORIENTALISM PAR EDWARD W. SAID : DÉFENSE, ILLUSTRATION ET NOUVEAUX CONTEXTES, revue Sociétés et Représentations, 2014/1 N° 37, p.84.

<sup>39</sup> -Bancel, Le postcolonialisme, p.43.

<sup>40</sup> - مجموعة بحث تشتغل على مجالات وحقول عديدة تتصل بالاستعمار وما بعد الاستعمار. <https://www.achac.com>

<sup>41</sup> - عزمي بشارة، موجز تاريخ الاختناق من أمريكا إلى فلسطين، موقع ضفة ثالثة، العربي الجديد، الأربعاء 06-19-2020.

<sup>42</sup> - يعزز مثال حالة المواطنين الأمريكيين من أصل أفريقي، "الاحتجاجات الواسعة التي شهدتها أمريكا على خلفية مقتل مواطن أميركي من أصل أفريقي، هو جورج فلويد في 25 أيار/ مايو 2020، على يد شرطي أبيض ظل جاثماً بركبته على رقبة فلويد لما يقرب من تسع دقائق في مدينة منيابوليس في ولاية مينيسوتا". لمزيد التوسع أنظر: وحدة الدراسات السياسية، تقدير موقف: الاحتجاجات الشعبية وقدرة ترامب على العبث بالقيم الأمريكية، 8 يونيو 2020، موقع المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، قطر.

<sup>43</sup> - يقول المفكر الفرنسي فريد بوشي: "لا تزال فرنسا خاضعة لتاريخ طويل لم تنته من توضيح مخلفاته. في نونبر 2005، أظهرت أحداث شغب كبرى في الأحياء الشعبية للعالم أجمع إلى أي درجة يشعر الشباب المنحدر من الهجرة بالمعاناة في نظام ديمقراطيتنا. منذ حصول أعمال الشغب هذه، والأسئلة الثقافية وما بعد الكولونيالية تظهر بطريقة صريحة

<sup>20</sup> - Nicolas Bancel, Le postcolonialisme, Collection Que sais-je ? (Paris : Presses Universitaires de France 2019), p. 9.

<sup>21</sup> -Sonia Dayan-Herzbrun, Présentation, revue tumultes, numéro 31, 2008, p. 5.

<sup>22</sup> - غبسون، فانون، ص 34.

<sup>23</sup> - غبسون، المخيلة بعد الكولونيالية، ص 34.

<sup>24</sup> - Nicolas Bancel, Le postcolonialisme, p. 79.

<sup>25</sup> - بول جونسون، المثقفون، ترجمة طلعت الشايب، (القاهرة: دار رؤية 2017)، ص 364.

<sup>26</sup> - مقدمة سارتر لكتاب معذبو الأرض، في: فرانز فانون، معذبو الأرض، ترجمة سامي الدروبي- جمال الأتاسي، (القاهرة: مدارات للأبحاث والنشر، ط 3، 2013)، ص 33.

<sup>27</sup> -Judith BUTLER, VIOLENCE, NON-VIOLENCE: SARTRE, À PROPOS DE FANON, Traduit de l'américain par Ivan Ascher, revue Actuel Marx, n o 55-2014, p.13.

<sup>28</sup> - فانون، معذبو الأرض، ص 60.

<sup>29</sup> -François Cusset, French Theory. Foucault, Derrida, et Cie et les mutations de la vie intellectuelle aux Etats-Unis, Editions la découverte, Paris 2005, p. 18.

<sup>30</sup> - محمد نور الدين أفاية، في النقد الفلسفي المعاصر مصادره الغربية وتجلياته العربية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 2014)، ص 8.

<sup>31</sup> - الزواوي بغورة، مفهوم الخطاب في فلسفة ميشيل فوكو، (القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة 2000)، ص 132-133.

<sup>32</sup> - ديبش شاكربارتي، دراسات التابع، ترجمة ثائر ديب، أسطور، العدد 3، يناير 2016، ص 13.

<sup>33</sup> -Bancel, Le postcolonialisme, p.29.

<sup>34</sup> - عبد الإله بلقزيز، نقد الثقافة الغربية في الاستشراق والمركزية الأوروبية، (بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية 2017)، ص 94.

historique, Traduit par Olivier Ruchet et Nicolas Vieillescazes, (Editions Amsterdam2009), p.15.

للغاية". فريد بوشي، إدوارد سعيد الأنسني الراديكالي، م م، ص30.

<sup>44</sup> -Bancel, Le postcolonialisme, p. 62.

<sup>45</sup> - إعجاز أحمد، في النظرية طبقات، أمم، آداب، ترجمة ثائر ديب (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2018)، ص123.

<sup>46</sup> -Bancel, Le postcolonialisme, p.81.

<sup>47</sup> - من بين الدراسات المهمة التي تناولت موضوع التهجين الثقافي في السياق العربي دراسة الباحث المغربي خالد زكري بعنوان:

Khaid Zekri, Modernités arabes de la modernité à la globalisation, Editions La Croisée des Chemins, Casablanca 2018.

<sup>48</sup> - أشكروفت، الرد بالكتابة، م م، ص31.

<sup>49</sup> - ألكسندر كوجيف، مدخل لقراءة هيجل، ترجمة عبد العزيز بومسهولي، (القاهرة: دار رؤية 2014)، ص7.

<sup>50</sup> -Nicolas Bancel, Que faire des postcolonial studies ?, op. cit, p.132.

<sup>51</sup> - أشكروفت، الرد بالكتابة، م م، ص15.

<sup>52</sup> - Bancel, Le postcolonialisme, p.102.

<sup>53</sup> - Achille Mbembe *et al.*, « Qu'est-ce que la pensée postcoloniale ? », *Esprit* 2006/12, (Décembre), p. 118.

<sup>54</sup> - Bancel, Le postcolonialisme, p.106.

<sup>55</sup> - نايجيل سي-غيسون، قانون المخيلة بعد - الكولونيالية، ترجمة خالد عايد أبو هديب، (بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات 2013)، ص315.

<sup>56</sup> -Khalid Zekri, Modernités arabes de la modernité à la globalisation, (Casablanca : La Croisée des chemins 2018), p.312.

<sup>57</sup> - أشكروفت، الرد بالكتابة، م م، ص25.

<sup>58</sup> - المرجع نفسه، ص25.

<sup>59</sup> - فريد بوشي، إدوارد سعيد الأنسني الراديكالي في أصول الفكر ما بعد الكولونيالي، ترجمة محمد الجرطي، تقديم إدريس الخضراوي (سوريا: دار صفحات 2018)، ص56.

<sup>60</sup> -Dipesh Chakrabarty, Provincialiser l'Europe La pensée postcoloniale et la différence